علم الاجتماع الجنائى .

— ٧ —

اين السعادة ؟

نقول : والرأي عند أصحاب المذاهب القضائية أن الاصل في التشريع ـ البحث في أسباب ايجاد السعادة بقدر ما يمكن للاغلبية ـ وفي السعي للحصول على كل مامن شأنه انماء هذه السعادة الى ما يمكن أن تكون —

يقول بنتام — : انما تغري الاخلاق الانسان وتحدوه ليبحث عن الماهية الكلية لسعادته — وما فيها طمأنينته .

أما السياسة — فانها تحدو المشرع لان يبحث عن أهم وأعظم سعادة لاكبر عدد من الناس —

"The greatest Benifits for the greatest number

على حين أن هذا المذهب متغير متبدل يخضع كغيره لناموس التحول — والانتقال ، ذلك بان المنفعة ذاتها في تغير دائم وتبدل مستمر — لاتلبث على حالة واحدة في زمن من الازمان أو في عصر من العصور ، وهي عند الافراد والجماعات نسبية صرفة ، تقع عند فرد أو ملأ من الخلق ـ على خلاف ما تقع عند انسان آخر أو جماعة أخرى

انظر الى ما يقوله استيوارت ميل (ولد في لندن سنة ١٨٠٦ وقضى بافينون سنة ١٨٣٣ . فيلسوف من أشهر وأكبر فلاسفة انجلترا ، وعالم من مشهوري علماء علم الاقتصاد — وفذ من أفذاذ هذا العلم الذين برزوا في ميدانه ، ونفعوا الناس بمتع مصنفاتهم ، ونافع فكرهم) انظر الى آراء هذا العلامة الكبير تر أنه يخلط خلطاً بين الفائدة والفضيلة — وهو مع ذلك يدلل ويبرهن على أنه أصاب محجة الصواب ، وكبد الحقيقة ، فلا هو حاد عن الطريق السوي ، ولا هو مال عن اتباع الحق . يقول — استيوارت ميل — ان الفضيلة جزء متجزيء من السعادة ، بل ويقول أكثر من ذلك أنها قد تصبح الفضيلة هي السعادة نفسها فلا تفرقها منها .

والحق : ان الفضيلة سبيل الى السعادة وليست هي السعادة بعينها على انه قد يكون ان تحول الرغبة السبيل والوسيلة فتصبح غاية او نتيجة غائية — وقد يتمادى الفكر في هذه السبيل فتصبح الفضيلة غاية في نفسها — اي انها تصبح سعادة في نفسها ، آية ذلك أن الانسان يعلم علم اليقين ان الدراهم والدنانير ان هي الا وسيلة لاشباع الملذات ، وادخال السعادة الحسية على النفس — ولكن هذه العقيدة على تغلغلها في ادمغة الناس ورسوخها في افهامهم ، لا تمنعهم ، ولا تحول بينهم وبين حب المال الحب الجم — الى حد انهم يحصرون فيه السعادة فتصير غاية غائية — ونهاية نهائية — ويكون كأنه هو النتيجة والغاية المقصودة لا السبيل الموصلة ، المؤدية للغاية .

يقول العلامة « فان هملن » انه ليس ثمت معابة في مذهب النفع والفائدة ، الا انه بحاجة الى دعامات متينة قوية — لان مذهبه انما يقوم على معرفة علمية حقيقية بعد درس الانسان بما فيه من ظاهرات — طبائع ، ونفس ، ثم الاستئناس بطريقة اجتماعية قائمة على اساس من الاحصاء ، ودعامات من التحقيق .

على حين ان « بنتام » يقنع من ذلك بقمع شهوة الاكثرية ، وارضاء الاغلبية ، ومتى واين كانت الاغلبية على ثبات ، او كان رأيها على حق ؟ ؟ الا ان الاغلبية لسريعة التغير ، وان ارادتها غير ثابتة بل هي متقلبة متغيرة ، وان الفائدة في حد ذاتها — سريعة التغير — وانت تقرأ في صفحات التاريخ — وهو اللسان الناطق لمن عرف كيف يستنطقه — تقرأ الحادثة في عصر من العصور ، او دهر من الدهور ، وبين ملأ من الخلق — فترى انها نسبية صرفة — اي انها تكيف بما يحوطها من الظروف والحالات . فكل شيء نسبي في هذا الوجود ، وكل شيء تابع لحالته التي تكيفه وتجعل منه صورة نسبية صحيحة — ولقد صدق ارسطو في ذلك حيث يقول:

« ليس في العالم شيء هو خير بذاته ، ولا شيء هو شر بذاته ، بل بالوضع ، وقد ينقلب الخير شراً ، والشر خيراً فلا تكون هنالك حقيقة »

مصر حسن حسين